

بين الحقيقة والخيال^(١)

حول القومية في الأدب العربي . دحض بعض مظالم لحقت به

المؤستاذ عبد اللطيف المقرئ المفتسمة بالمعارف

وفي يوم عطلة تآقت النفس إلى رحلة على متن النيل طلبا للراحة واستجماما للنشاط ، فركبت سفينة تتردد بركابها بين بعض المدن المطلة على نهر النيل ، وانتبذت فيها مكانا نعمت فيه بالهدوء وراحة البال ، وأشرفت منه على صفحة النهر الوضأة : أرى مافيه من الإشراق والجمال ، وأراد الماء العذب يدفع بعضه بعضا ، ليسعف الوادى الخصب بحاجته من السقيا غير وان ولا مقصر ، كأنما يضرب للناس المثل فى الوفاء — وأشاهد ماتخطه أنامل النسيم على وجه الماء من خطوط تضطرب أمام العين إلى غاياتها المشرودة فى خفة وحسن ، كأنها كتائب أمل مشرق يزجىها النسيم إلى أفئدة الظاء فتتعشهم ، أو سطور نور على صفحة النهر تمثل للناس أزكى ما يحمله الماء من معانى الحياة والرجاء والقوة والخصب — وأردد الطرف بين شاطئيه فلا يقع إلا على حدائق مرفقة وزروع ناضرة حاذت النهر وسائرته ، كأنها تظهر له على طول الطريق شكرها على ما جاء به من نعم ، وأسدى إليها من جميل .

واقعد سماءى هذا المنظر الساحر إلى آفاق من الجمال والروعة ما كنت على فؤادى ، وأظفرتى بمسرات روحية لا ترى النفس مثاها إلا فى حلم أو خيال ؛ فقد كان كل شىء باسماء ، وكأنما محاماء النهر ماران على قلوب النفس من شواغل الحياة وهمومها فبدت النفوس صائفة والتلوب منسرحة . وفى مثل هذا الوقت تسفر الطبيعة وتنجلي فى أروع مباهاجها وتبوح بأسرارها حيث يلتقى نور الروح ونورها فيمتزجان .

(١) بقية ما نشر فى الأعداد السابقة .

وبينما أنا مغمور بهذا الصفاء إذا طائر غربد على سارية السفينة فد فتته
الطبيعة بجبالها فانطلق يصدح ويصرغ هذا الجمال نغما عذبا ، ويبعثه على أجنحة
النسيم كأنه في انسجامه قصيد : معناه النهر وبهاؤه والطبيعة وألوانها ، وقافته
خفقات النسيم المتلاصقة المنتظمة — فياله من شاعر أهدى إلى الفؤاد أجمل
خلجات الأمانى ونوازع الأمل . وكنت حريا أن ألقى إلى هذا السحر الرائع
بالا ، وأفرغ له بنفسى وشعورى ، وأستوعب ما أودعه الله في هذا الصوت
المطرب من جمال ومتعة .

فما راعنى إلا باز أقنى سريع الحركة قوى الوثبة ، يهوى على هذا الطائر
الوديع الشادى ، فهالنى ما رأيت وخفق قلبى لذلك خفقة قوية ، وتملكتنى
سورة غضب عاتية ، وتمثلت بهذا المنظر عدوان القوى على الضعيف بلا جبرية
وفتكه به — وتلك البلية أشد مظالم الحياة وأحقها بالمت — وإذا كان الإنسان
الموهوب عقلا وخلقا ومدنية وعلمها يرضاه ويتحفز ويفتن فى الاستعداد لها بكل
ما يملك من حول وطول — فلا نكران على الطير سلب العلم والعقل .
وفى لحظة موأية وحركة مرفقة تخلص الطائر الصغير وأسف قلعا جزوعا
إلى مستوى سطح السفينة كأنه يستجد بركابها من هول ما ألم به ، والبازى
يتبعه، فلوحت له بمنسأتى فولى هاربامذعورا ، وتعلق الطائر الصغير بحافة السفينة
عن كشب منى ، فحمدت الله لنجاته من هذا الظالم الأثيم . وكنت أتعهده من
وقت لآخر بالنظرة بعد النظرة ؛ لأطمئن عليه وآنس برؤيته ، فأجده لا يزال
يطرقنى بنظره ذى البريق الخاطف ، فتضطرب لذلك نفسى بعض الاضطراب،
وكنت أحمل هذا على سروره بما قدمت له من معونة .

وما كان أشد دهشتى حين رأيت يذنومنى ويبد الخطا غير هباب ولا وجل ،
ثم ينتفض انتفاضة يتكشف بها عن صديقى العصفور فوثبت إليه مصافحا
وعانقته ، ودموعى ودموعه خير ترجان على ما يكنه قلبانا من عوامل الود

والوفاء ، وهنأته بنجاته من خطر داهم ، فشكر لى صنيعى ، وطفقنا تنتقل فى نواح من الحديث حتى عاد إليه نشاطه ، ولمعت على أسارير وجهه علامات البشر والارتياح . فبدأنا حديث اللقاء :

— ١ —

أنا — كان لحديثك عن القومية التى يدعو إليها المجددون فى الأدب وقع حسن فى نفسى فهى بهذا المعنى الذى جلوته لاخطر منها على الأدب ، وتكاد تكون صبغة لأدب كل بيئة فى عصور الأدب العربى الغابرة ، فالأدب الحجازى ظرفه وعفته ، وللأدب البغدادى العباسى مجونه وصراحته وللأدب الأندلسى دعابته وخلاعته ، ولكل أدب طابعه الخاص مع ارتباط الآداب العربية جميعها بالذوق العربى العام وامتياحها من ينبوع العربى لغة وعرفا وثقافة فوق خصائص الأقليم الذى ينتسب إليه كل أدب .

فلست أرى للمجددين فى مذهبهم وضوحا ولا تحديدا ، ولعل هذا من الأقوال المبهمة التى تلقاك برنين وقوة جرس ونخامة لفظ ، فإذا عرضت لها فى هوادة ورفق لم تجد وراءها شيئا جديرا بما قد أضعت فيه من وقت ، ورصدت له من نظر . فهل فى القول بقية تزيد هذه الدعة إيضاحا ؟

العصفور — الحق ما رأيت يا صديقى . فإن هؤلاء المجددين يحومون حول معنى القومية دون أن يصوروها للناس واضحة ، ويذكرون أمورا عامة مرنة لا تصلح أن تكون أساسا للحوار — ويذهب بعض المجددين مذهباً يكشف لنا عن ناحية القومية غير ما كنت حدثتك به عنها : فيرى أن نمصر أيضا عراطفنا وشعورنا فنصبغهما باللون المصرى الخالص ، حتى يعرفنا به كما يعرف كل أدب غربى بسمانه الخاصة .

وصاحب هذا رأى هو الأستاذ إبراهيم المصرى ، وندعه يوضح لك رأيه إذ يقول : « هناك العراطف البشرية التى يقوم عليها الأدب كفن ، والتى قد تتشابه فى جواهرها الانسانية ، ولكن هناك أيضا اختلاف مظاهرها وتفاعلاتها ،

باختلاف أمزجة الأمم والشعوب . هنالك المون الإحساسى الفكرى الذى نهى به أدبا عن أدب ، ونعرف به روح أمة . وإذا كانت عبقرية الأدب الروسى تمتاز بالإنسانية العميقة والرحمة الواسعة ، وعبقرية الأدب الفرنسى بالموضوع والمنطق والنوازن ودقة التحايل ، وعبقرية الأدب الألمانى بسعة الخيال واتناد العاطفة والصرفية الفلسفية . فيجب أن تكون هناك عبقرية أدب مصرى لها طابعها الخاص فى النظرة إلى الحياة والتعبير عنها ، فنحن إذا لم نصور الفرد المصرى ونحلله لم نعرف عاطفته ، ولم نستطع بالتالى أن نفهم كيف يستقبل وجدانه مختلف شؤون الحياة ، وكيف يتصرف حيالها ، وكيف يعالجها ويفكر فيها . أنا : وهذا أيضا لا نعارضهم فيه ولا ضير منه على العربية ، ولعلك يا صديق توافقت على أن كل إنسان حر فى التفكير ورياضة إحساسه على الطريقة التى يرتضيها . ولكنى أخشى أن تكون الدعوة إلى القومية فى الأدب طريقا إلى شيء آخر يضر العربية ، فهل أنت ذا كرى شيئا عن نشأة هذه الفكرة وتدرجها ؟ وموقف الكتاب ورجال الأدب منها ؟

العصفور — من نحو نصف قرن مضى كانت الأفكار قد نشطت والهمم فى طريقها إلى تجديد مجد مصر ونهضتها على أسس قوية من العلم والفن والصناعة ، بما يبته رجال الإصلاح وزعماء النهرض المتماقين — نضر الله وجوههم ! وكان من ثمرات هذه الحركة شعور الأئمة بمكائنها ، وأنها ذات كيان يجب أن نعمل لصونه ، قنما فى النفوس حب الاعتزاز بالمصرية والدعوة إلى ما يحقق القومية فى كل نواحى الاقتصاد والصناعة والفن لافى الأدب وحده . وكان من أوائل الدعاة إلى ذلك صاحب السعادة أحمد لطفى السيد باشا . ونورد عنه هنا نبذة صغيرة ذكرتها السياسة الاسبوعية حيث قالت « تراه فتحسبه من الطبقة العثمانية القديمة مع أنه أول من حمل على الروح العثمانية فى مصر منذ عشرات السنين ، وأول من قال باستقلال الروح المصرية عنها ، وأول من احتمل الاذى والنقد الشديد من

أجل هذه الدعوة القومية المصرية أيام أن كان جهد الفخر عند المصريين أن يكونوا عثمانيين ، وهذه الكلمة تلقى وضحا عظيما على جانب كبير من لشأة القومية المصرية . وكان من الكتاب الناشئين المرحوم محمد تيمور الذي يدعو إلى النهضة المصرية في الأدب بحماسة عظيمة ، وقد غذى المسرح المصرى بكثير من الروايات ، وخلفه أخوه الأستاذ محمد تيمور الكاتب القصصى المعروف . ولقد صادفت هذه النزعة هوى فى النفوس منذ الدعوة إليها فسارت فى طريقها أول الأمر وانية تصطدم بعقبات حيناً فتقف ، وتتغلب حيناً عليها فتندفع فى طريقها إلى غايتها المرجوة .

وكان من ثمار الحرب العالمية الكبرى أن تطلعت مصر إلى حريتها ، وفاضت صدور أبنائها بالامل العظيم ، واضطربت نار الحماسة فى قلوبهم فاضلوا انضالا هائلا ، علمهم كيف يكون الاعتماد على النفس والغضب للكرامة والاعتزاز بالقومية ، فنشطت الدعوة إليها ، وتناولتها فى صور مختلفة ، وكان ممير الأدب رهنابان يمسسه شئ من هذه الدعوة فكان ما قصصته عليك من أمرها فى موقفنا السابق .

أما الكتاب ورجال الأدب فمنهم من التزم جانب الصمت وطلب العافية ، فلم يشرع له قلبا فى هذه السبيل ، ومنهم من ركب هواه فتشيع لها وناصرها بقوة ، ومنهم من أوجس فى نفسه خيفة فغارضاها — وإنى لسائق إليك بعض أقوال المعارضين حتى تقدر بنفسك ما يجول فى صدور هؤلاء من الخوف على اللغة من هذه النزعة ، وما يخلج فى أفئدتهم من أمور . ونبدأ بقول أمير الشعراء المرحوم شوقي بك ، قال :

« وأولئك الذين يطأون أدياب مصر باغير شائع فى العالم العربى ، ولا يستوحى
الأدب العربى القديم : إما أن يخلعوا لمصر لغة أخرى يسخرونها ويعيشون بها
كما يشاءون ، وإما أن يستوحوا للأدب المصرى المزعوم لغة من لغات

الغرب . ولن يكون هذا الأدب يومئذ إلا علما مزيفا على مسمى ، لا فضل لهم فيه إلا فضل الترجمة عن قوم يتكلمون بغير لساننا ، ويعيشون في غير جونا ، ويظالم من النظم والعادات والأخلاق مالا يظننا — وإما أن يقفوا عن استيحاء الماضي العربي والحاضر الغربي ، ويكون مثلهم حينئذ كشلول الذاكرة حيل بينه وبين الماضي ، والماضي أطول من الحاضر وأحفل ، وهو أفسح مجالا لخيال الأدباء والشعراء .

ومن بين آداب العالم كلها لم أسمع بأدب تذكر حاضره لماضيه ، واستطاع أن ينهض على ساق . إن الأدب المصري والأدب البغدادى والأدب الأندلسى والأدب الأموى والأدب العباسى ، ليست كلها إلا نعوتا لزمان الشاعر العربى أو مكانه ، يمدّها الوجدى العربى كلها ولا يختلف بعضها عن بعض إلا فى ظروف العصر والمكان .

واستمع إلى غضبة الدكتور على العنانى على المجددين الداعين إلى القومية فى الأدب ، إذ يقول :

« تصدر فى مصر فريق غير ناضج فى الثقافة العامة ، مدعى معرفة كل شىء ، وناصباً نفسه إلى الإرشاد فى كل شىء ، أو بعبارة عامة إلى القيادة الفكرية ، ولا يتورع هذا الفريق — مع الأسف الشديد — عن التعرض لما لا يعرف ، ويقرر حكمه فيه . والأمثلة على ذلك كثيرة جدا نذكر من بينها تلك الدعوة العجيبة إلى اشتغال الشباب المصرى بأدب قومى مصرى ، وما يتبع ذلك من إهمال جانب الأدب العربى العام — وبربك خبرنى أين هذا الأدب القومى المصرى ؟ أهو أدب الفراعنة ؟ أم أدب العرب المصريين ؟ وفى أى لغة على كل حال قد دون هذا الأدب ؟ فى اللغة الهيروغليفية ؟ أم فى لغة مصرية أخرى موهومة ؟ أم فى لغة العرب ؟

وإذا كان هذا الأدب القومى المصرى مدونا فى لغة العرب فأدب هذه اللغة

هو أدب اللغة العربية العام منذ نهضتها الجاهلية الأولى حتى الآن ، وغاية الأمر أن مصر لها ذوق خاص فيه كما لسوريا وفلسطين والعراق واليمن ونجد والحجاز وبلاد أفريقيا الشمالية وأقطار الأندلس — من الأذواق الأدبية المختلفة، وكل واحد منها متوقف طبعاً في فهمه واستساغته على فهم الأذواق العربية الأدبية الأخرى في جميع أقطارها المترامية ، وبالجملة فهذه الفكرة الزائفة، والدعوة الهوجاء إليها ، مع ما فيها من قول خلاب ونزعة وطنية ظاهرية براقعة ، ليس فيها سوى إغراء الشباب ضد الحضارة العربية والتضليل به في هذا السبيل .

وهذا الأستاذ صاحب المعرفة يقول « قامت منذ سنوات معدودات فئة تدعو إلى تمصير الأدب العربي ، أو خلق أدب قومي ، فصفق لها جماعة من المتأدبين ، وهلل لها جمهرة من الشباب المتحمسين ، ولا ضير في هذا كله ماداموا للعربية حافظين — لكن إلى جانب هذه الفئة فئة أخرى تدعو إلى خلق أدب مصري خالص لا يمت إلى الأدب العربي بصلة ولا يرتبط والعروبة بوشيجة أو نسب .

وقد أخذت هذه الفئة الثانية تروج لدعوتها بكل ما فيها من قوة وحماسة ، واستغلت أكثر مما استغلت الأولى روح الشباب المتوثب ، وتغنيه بما أثر أجداده القدماء ، وترداده لكلمات الوطن والوطنية ومصر والمصرية ، وما إلى هذه من أسماء ومسميات — ونود الآن أن نقرر لأصحاب هذه الفكرة الجديدة — فكرة الأدب المصري الخالص — أن فكرتهم على ما بها من جدة لا تقوم على أساس علمي صحيح ، فهذا الأدب المصري الخالص الذي ينادى به أشياعه ليس إلا أدباً زائفاً لا يعتمد على نفسه ، وإنما يعتمد على غيره من الآداب . وما من شك في أن الأدب المصري في لحته وسداه ليس إلا الأدب العربي مهذباً . والتفكير العربي بمصر . فإن أبي أصحاب الدعوة إلا الإنكار ، فليدأونا على اللغة القومية التي بها يكتبون ، فإن كانت الهيروغليفية أو القبطية أو

العامية المصرية — وهذه هي اللغات المصرية — سلمنا لهم بما يدعون . أما إن كانوا يسجلون خواطرهم ويرسمون أحاسيسهم بغير لغة من تلك اللغات، فذلك هو المنطق المعكوس بعينه، والشئ الذى لا يصح فى الأذهان . وإنما الذى يستقيم والمنطق : هو أن لنا أدبا عربيا مصريا : عربيا من حيث اللغة والإنشاء ، مصريا من حيث التفكير والأسلوب .

— ٢ —

فترى مما قصصته عليك مقدار المعارضة لهذه الفكرة من بعض الأدباء والمفكرين . ومن بيانهم وأدلتهم التى ساقوها فى اتزان واعتدال حينا ، وثورة وغضب حينا آخر — تقدر منزلة هذه النزعة من الحق . فإن الدعاة إلى هذه الفكرة إما أن يتخذوا لهذا الأدب لغة موضوعية أخرى غير العربية من اللغات التى مرت بك ، وهذه اللغة لا تحقق الفكرة أيضا لقصور هذه اللغة عن البيان والثروة الفكرية فى اللغة العربية ، ولن يقوم أدب حديث على غير سالفه من أدب قديم ، ولا صلة ماضية متينة تستند إليها دعائم هذا الأدب ، وتستمد منها أسباب القوة والاستقرار كما يقول أمير الشعراء « ومن بين آداب العالم كلها لم أسمع بأدب تنكر حاضره لماضيه ، واستطاع أن ينهض على ساق » . وإما أن يسترحوا لهذا الأدب لغة أخرى غريبة ، وحينئذ يكون هذا الأدب المزعوم ضرورة ممسوخة وهى التى وصفها أمير الشعراء بقوله « ولن يكون هذا الأدب يومئذ إلا علما مزيفا على مسمى لا فضل لهم فيه إلا فضل الترجمة عن قوم يتكلمون بغير لساننا ويعيشون فى جو غير جونا ، ويظلمهم من النظم والعادات والأخلاق ما لا يظاننا » .

وإما أن يحدفوا فى الأدب القومى المزعوم عن الماضى العربى والحاضر الغربى فيكون أدبهم أعجف خاويا من رسائل القرة والخصب ، وينتطع عنه الغذاء الصالح حتى يموت ، لأن أهله فى هذا الموقف يكونون كما صورهم أمير الشعراء

بقوله « ويكون مثلهم حينئذ كمشلول الذاكرة حيل بينه وبين الماضي » .
ولعلك يا صديقي بعد أن سمعت أقوال هؤلاء المعارضين ترى أن فكرة
القومية التي يتصدها المجددون غير واضحة المعالم، ولا محدودة الغرض، فهي لا تزال
تضطرب في كثير من الإبهام والغموض، ولهذا تلس الحيرة في فهمها شائعة في
أقوال المعارضين، فتناولوها في عموم شامل، وعارضوها على أنها فكرة مطلقة
تحمل معها الخطر على العربية، ولم يعرضوا لها في شيء من التفصيل يلقي ضوءاً
على الغرض منها، وما حدثت بك به عنها في المقال السابق يبدو أوضح الأغراض
من هذه الفكرة وأقربها إلى العقل والقصد في التجديد الحسن — وهذا القدر
الذي أوضحناه متحقق في الأدب العربي قوة وضخاً في كل بيئة حل بها، ولا بد
لكل أدب أن يكون صورة لزمانه ومكانه إلى حد ما، ولا بد له أيضاً أن يجاوز
حدود الإقليمية حتى يضرب في عالمية الأدب بسبب، ويمت إليها بنسب — وأدبنا
العربي على الرغم من حملات المجددين عليه واتهامه بالقصور عن مسيرة روح
العصر، وأن ذوقه لا يزال عباسياً لامصرياً — يتبع في نهوضه السنن المألوف
الذي يوائم طبيعته وروحه، ويظفر من أساليب الابتكار والتجديد بالقدر الذي
يجود به الزمان، وتسمح بقبوله الأذواق العامة، والطفرة به ضرب من الحال،
وتمرد على التواضع الطبيعية .

ونظرة يسيرة إلى حال الأدب الآن وحاله منذ نصف قرن تريك قدر
النهوض السريع العظيم فيه .

ثم ما بال هؤلاء المجددين يصخبون ويضجون في غير هواة ولا رفق،
ويصلون ليلهم بنهارهم في النقد والتهكم والسخرية من الأدب العربي ورجاله .
ولا يطلعون على الناس بمذهبهم الجديد من صياغة مبتكرة وذوق مصري
محض، وقومية إقليمية، وأسلوب طريف بجانب الصناعة، ويخالف أسلوب ابن
المقفع والجاحظ والحريري والهمذاني كما يقولون ؟

وإن هذا يقوم هو المنطق المعقول، وطريق الإقناع والهداية إلى ما تريدون .
أخرجوا للناس نماذج مما تدعون إليه من الأدب الحديث قبل أن تقضوا على
الأدب القديم، وأنتم الذين كرعتم من الآداب اللاتينية القديمة والغربية الحديثة،
ونصبتهم للناس موازين الحكم بين الآداب العالمية كما تزعمون . هذه دعوة صادقة
يطرب لها كل عاقل، ويقرنا عليها الحق والمنطق، وقد انصفتكم بها فاستجيبوا
لها إن كنتم في دعوتكم جادين، وإلا فقد عرف الناس أنكم لاهون هازلون،
وكنتم إذ تقضون على القديم ولا تقيمون حديثاً مكانه كمن حمل معولاً وهوى
على بيته هدماً وتخريباً، ثم جلس على أنقاضه صاخباً باكياً كما تصخب البوم
والغربان على الأطلال البالية والرسوم الدارسة .

أنا - رعاك الله وأدام توفيقك يا صديقي العصفور ! فلقد أحكت القول في
نشأة القومية وتدرجها وأرضيتني بما سقت من آراء المعارضين لها، وأخذت
بزمام الحق في دعوتك المجددين إلى إعلان مذهبهم حتى يتضح للناس صدق
فكرتهم وحيقيتها، وهذا حق لا ينازعك فيه منازع، وما كنت أظن أن يبلغ
عليكم يا معشر الطير بأدبنا وظواهره ما قد رأيت اليوم : من سعة اطلاع، وعظيم
إحاطة، وإتقان رصد، وصدق نظر . وإني لمعجب بك شاكر لك .

العصفور : الحق أن هذه الدعوة لا تبعث في النفس الاطمئنان على العربية،
وقد يكون في طيها غرض آخر لبعض المجددين لم تفصح عنه الأيام بعد - ومهما
يكن من شيء فلا بد لنا من الاعتصام في هذا الموقف المبهم بحسن النية، حتى
يظهر لنا خلافه، فذلك أولى بمن يسلك سبيل النزاهة في البحث . وعلينا تلقاء
حسن الظن الذي تلوذ به أن تغض الطرف عما تبعته أقوال المعارضين السابقة
في النفس من التشكيك في أمر هذه الدعوة والتحذير منها، كما نعجب العجب كله
من انقباض هؤلاء المجددين عن الثقة العربية، وإقبالهم كل الإقبال على مظاهر النقاوة
الأوربية والهيام بها، ومنطق العدل يتهاضهم أن يصدوا عن كل ثقافة غير مصرية أو

يساؤوا بين الثقافات جميعا، وإنى لمقتنع بأن الدعوة إلى القومية في الأدب مظلمة صبتها الأيام على الأدب العربي، وكملها من مظالم رمتها بها فتلقاها صابرا محتسبا، ومضى في سبيله يقارع الدهور ويغالب الأيام بما كتب له من خلود.

أنا — تطربنى معدلتك في البحث، وعلاجك الأمور بحكمة وروية، واعتصامك بالخلق السرى، فلا تميل إلى هوى، ولا تطوى عن الناس أمرا وتبسط لهم أمرا؛ ليستقيم لك ماتريد، وهذا أسمى ما يتطلبه الحق الذي تجنح إليه النفس الفاضلة، وتلك إحدى مكارمكم يامعشر الطير. كنت أود أن ينسج على غرارها عندنا بعض النقاد الذين يتناولون الأدب على أنه سلعة ترتفع قيمتها وتنخفض في سوق الهوى؛ تبعا لما يناهم من ربح خسارة، ولقد أيقظت في نفسي حب الاستماع إلى بعض تلك المظالم التي نصقت بالأدب العربي، فهل لك أن تقفني على شيء منها فأكون شاكرا.

— ٣ —

العصفور: إنه ليسرني أن أسوق إليك بعض صور من هذه المظالم غير مظلمة القومية في الأدب التي فرغنا منها — فمن هذه المظالم مظلمة جديدة وليدة سنوات مضت وهي « أن الشعر العربي غنائى » ويقصد القائلون بذلك أن الشاعر فيه يتغنى بما يمس وجدانه وحده، وينبعث عن شعوره وأمانيه وأحلامه الخاصة في أسلوب موسيقى هزاز ساحر، فهو غريق في الفردية، بعيد عن إحساس الجماعات وتصوير المثل العليا لها في الحياة، وتحليل ما تضطرب به دنياها من حقائق وتجارب وفلسفة ومعان سامية تتصل بكل نفس، ويمش لها كل قواد.

وقد سرى بين كثير من الأدباء هذا الرأي وتصايحوا به، ولجوا في إشاعته بين الناس، كأنه نصر جديد في الأدب، ولم يكفوا أنفسهم عناء التفكير في صحة هذا الحكم، فهذا كاتب مصرى يقول « لذلك جاء الشعر العربي شعرا غنائيا بوجه

عام ، شعرا يعبر عن شعور الشاعر نفسه ، ويصور ما يحيط به تصويرا صادقا بديعا ، فهو شعر يغذى الإحساس والشعور السطحي ، ولكنه يعجز تماما عن تغذية الروح . وهذا الرأي قد رآه من قبل الأستاذ «جيب» مدرس اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ، ولعل رأيه هو مبعث هذه الفكرة لدى أدبائنا المجددين . ونورد رأيه هنا مأخوذا من مقال للأستاذ محمد علي المحامى . قال « من أهم مميزات الأدب العربى والفارسى أنه عاطفى (Romantic) وأن الطالب الذى نشأ على حب المنل اليونانية فى الأدب لن يجد فى أدب العرب والفرس تلك الصفات التى امتاز بها أدب اليونان ، والتى هى السرفى قوته الساحرة الياقية على مدى الزمان ، ويرغم مافيه من قوة الصياغة فإن فيه جمودا ، وفى أدب اليونان تنوع ، وفيه إغراق ومبالغة ، وفى أدب اليونان شدة واتزان — وقد بلغ الكتاب اليونان واللاتين ما بلغوه من العظمة بتوخي السذاجة والسهولة ، وعدم الاندفاع — على حين أن الكاتب الشرقى ينسج آياته فيملؤها بالبديع الغامض من اللفظ ، ويلتمس لها الاستعارات والكنائيات البديعة الخلابية ، واليونانى يؤثر فى الفكر بوساطة الجمال الخالص ، أما العربى أو الفارسى فيؤثر فى الحاسة وفى الخيال بما يأتى من الألوان الساحرة . »

فالأستاذ «جيب» فى كلمته هذه يرى أن الأدب العربى عاطفى أو غنائى ، وأنه يخالف الأدب اليونانى فى أمور منها : أن الأدب العربى فيه جمود ومبالغة ، واليونانى فيه اتزان وقوة وتنوع ، والأدب العربى يعتمد فيه الكاتب أو الشاعر على قوة الصياغة والتأثير بالالتجاء إلى الإكثار من البديع الغامض والاستعارات والكنائيات البديعة ، واليونانى يعتمد على السذاجة والسهولة وعدم الاندفاع ، والعربى يؤثر فى الحاسة والخيال بما يأتى من الألوان الساحرة ، واليونانى أو اللاتينى يؤثر فى الفكر بوساطة الجمال الخالص .

والحق أن الأدب العربى ليس غنائيا أو عاطفيا فقط كما يقول الأستاذ

« جيب » والمجد دون الذين يرون هذا الرأي . فقد عرض أدبنا لنواح آخر
 كثيرة غير العاطفة ، وترفع عن الفردية المطابقة التي يرمونها بها إلى أسس آفات
 الحكم والزهد وتهذيب الخلق ونصرة الفضيلة وآداب السلوك .
 ولولا خلال سننها الشعر مادي بناء العلا من أين توثق المكارم
 وعرض لوصف الطبيعة وأسبغ عليها من ضروب التشبيه والإبداع ما يعد
 مفخرة له بين الآداب العالمية ، لنفوذ بصيرة شعرائه وكتابه إلى أسرارها ،
 ولا نطن أحدا من أدباء الغرب يفوقهم في هذه الناحية - وقام بما يرجى منه
 في النضال الحزبي بين الطوائف الدينية والسياسية ، وكرع من الفلسفة ماشاءت
 له طبيعته ، ووصف المعارك والجوش والأساطيل وغيرها بأسمى ما يتطلبه العقل
 البشري ، فكيف يصح وصفه بأنه غنائي أو عاطفي فقط ، والتغاضي عن المعاني
 العالمية ، والأفكار الاجتماعية التي تعلو على الفردية وتتصل بحياة الجماعات
 اتصالا وثيقا ، فتتير لها سبل الحياة العملية والروحية ، وتضع بين أيديها كثيرا
 من نظم الهداية وآداب السلوك . والآداب العربي فياض بمثل هذه المعاني
 العالمية ولعل كثرتها فيه من خصائصه الواضحة لكل من سبر غوره ،
 وتعرف إليه في نصفه وتحفظ ، ولولا أن تعرضنا لذكر أمثلة مختلفة لما مضى
 يند بنا عن الغرض الذي نرجو بيانه في هذه العجالة ، لحشدنا طوائف من
 الأدب العربي تؤيد ما نقول . والذي يزهنا في ذلك قربها من متناول اليد والعين
 في مصادر الأدب العربي الكثيرة . على أن الذي يدهشني حقا إنكار العاطفة على
 الأدب العربي وهي أساس كل فن - وخاصة الأدب - وروح النبوغ فيه والسموبه
 فهل يظن المجددون والأستاذ « جيب » أن هناك أدبا يخلو من العاطفة في الآداب
 العالمية كلها ، ويعد نفسه لوصف حياة الجماعات من علاج مصاعبها وحل المعقد
 من أمورها ، ووضع المثل العليا لاسعادها ؟ إن مثل هذا الأدب لخرى أن

يوصف بأنه مجموع قوانين تعتمد على العقل والمنطق ، لاعلى الوجدان والخيال .

وليس عيبا اعتماد العربي على ضروب الزخرف المعقولة من استعارة وكناية وتشبيه وبديع ، ليزال بها مواقع التأثير من سامعيه ، فلكل لغة ثروتها من هذا الزخرف ، وحظ اللغات منه يختلف قوة وضعفا ، والعربية أوفى نصيبا من غيرها في هذا ، إذ ، كانت أوفر اللغات مادة ، وأغزرها ثورة ، فليس محظورا على أبنائها أن يحلوا ببيانهم بما شاءوا من هذا الطراز الفاخر المجيد .

ولا أزيد هنا أن أدعو إلى الأخذ بالصناعة والإسراف فيها كما فعل بعض متقدمي المولدين كآبي تمام ومسلم ، وأدباء عصور الضعف الأخيرة ، فهذا أمر أطبق رجال النقد على إنكاره ومجافاته للذوق السليم ، والفطرة العربية الصادقة . وليس من حق الذين يرمون العربية بالإغراق في الصناعة أن ينظروا إلى أمثال هؤلاء ويجعلوا تراثهم أساسا للحكم على العربية بالإكثار من الصناعة ، ثم يهملوا عصور القوة والإشراق التي كانت اللغة تتجلى فيها بصناعة مقبولة ، تزيدها قوة على قوة ، فإن هذا ليس من الإنصاف في شيء .

ومن ذا الذي يشاء أن ينكر على العربية التحلى الصناعي ، الذي يجرى على قدر تألفه النفوس وترتاح إليه الأسماع ؟ إن الغاية قد تغنى بجمالها عن الحلية ، وليكنها إذا أزينت بها أضافت إلى جمالها جمالا . وهذا باب يحسن ألا ندعه حتى نضرب بعض أمثلة تقرب قصبي وتوضح خفيه . انظر إلى قول ابن سفر الأندلسي يصف المد والجزر في نهر :

شق النسيم عليه جيب قميصه فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام لأجله هزوا فضم من الحياء إزاره
فهل رأيت حسن تعليل لظاهرة المد والجزر أبدع من هذا ؟ ولولا هذا الخيال الرائع ما بدت الحقيقة مؤثرة كما ترى — وكان في الامكان أن يرد الشاعر

الحقيقة إلى السذاجة والفطرة فيقول : طغى ماء النهر على شاطئيه بتأثير المد والجزر، ورجع إلى أصله حين زالت الدواعي ، ولكن أين تقع هذه الصورة الهزيلة المقفورة من روح الخيال وحسن التعليل ، من الصورة الأولى الرائعة ؟ أبعث هذا يعيرون علينا أدبنا ؟ اللهم إني بعث هذه الصناعة من المعجبين ، فزدني بها علما .

إن الصناعة في ذاتها ليست معيبة بل هي من أسباب الروعة والجمال الفني ، وهي في يد الشاعر أو الكاتب الموهوب مبعث فتنة ومطلع إشراق ، وملقى ألوان ساحرة يؤثر بها صاحبها في الحاسة والخيال كما يقول الأستاذ «جيب» ولا عاب علينا في ذلك مادامت قوة الشاعر أو الكاتب تصرفها في آفاق من الإبداع والإتقان . تأمل قول شاعر الطبيعة الموهوب ابن خفاجة الأندلسي إذ يقول .

يا ليل وجند بنجد أما لطيفك مسرى؟
وما لدمعى طليقا ونجوم الليل أسرى
وقد طمى بحر ليل لم يعقب المد جزرا
لا يعبر الطرف فيه غير نهر المجرة جسرا

فهذه قطعة مصورة من الطبيعة ، وقد اخترتها مفعمة بألوان الصناعة ، ومعناها جميل رائع ، وخيالها حسن ساحر ، فقد عنى فيها الشاعر بالجناس بين « وجد وبنجد ، ومسرى وأسرى وجسرا » وبالطباق بين « انطلاق الدمع وأسرى النجوم » وشبه الليل ببحر لأنه جياش الظلام متموجه كلجة البحر المواردة ، ترمى بالموج المتتابع ، وذكر المد والجزر وعبور الجسر ترشيحا لهذا التشبيه الصادق ، فجاءت القطعة رائعة النسيج والمعنى . فهو يقول « يا ليل الوجد ، هل يسرى طيفك الذي أمضى ثباته ، وأقضى مضجعي استرساله ، وما لدمعى طليقا لوجدى وحزنى ونجوم الليل أسرى ثابتة في مكانها لا تؤذن بتحولها وتقضيه ؟ وقد طمى الليل

وترامى ظلامه إلى أطراف الأفق كما يترامى ماء النهر بتأثير المد فيه، وظل مسترسلا في طغيانه لم يلحقه جزر — وترى المجرة التي تشبه النهر في ضيائها واسترسالها قد شطرت الظلام في رأى العين شطرين، فكأنها بين شقي الظلام قنطرة تعبر عليها العين من أحد الشقين إلى الآخر، وتلك معان قد آزر فيها الفكر الصنعة، حتى برزت الصورة واضحة جميلة كما رأيت.

ولو أن الشاعر قال « طال ليل الوجد ولم يتحرك طيفه ودمعى يسيل، والنجوم ثابتة وترى الليل مظلم لا يضيء فيه غير المجرة، لما كان لهذا الكلام التأثير الذى تراه في الصورة الماضية.

ومن هنا يظهر أن الشاعر الموهوب لا تتوقه الصناعة عن بلوغ الغرض، لأن قدرته تعينه على صوغ الصورة الفنية كما يشاء ممزوجة بألوان الصناعة — بل إن الصناعة والخيال مما يعين على تنمية المعانى، وبسط ألقها أمام الشاعر أو الكاتب؛ فلو لا تشبيه الليل بالبحر وذكر الترشيح لهذا التشبيه لخر منامع البيتين الآخرين، ولوقف الشاعر عند معنى الأولين.

والصناعة إنما تقبح وتسمج إذا تناولها شاعر أو كاتب ضعيف مريض، الذوق غليظ الطبع قفر الخيال سائب الهبة الفنية، وتكون الصناعة في يده كأوتار العود في يد المشلول إذا حركها بيده أتت بأقبح النغم وأبغض الإيقاع، ولهذا قبح الشعر في عصور ضعف اللغة. ولسنا نعارض المجددين في أن هذا النوع من الصناعة المريضة الملحة في الإسراف مفسد للأدب — ولا نريد هنا أن نورد شيئا من هذا النوع البغيض ضنا بالذوق والفطرة.

وإذا كان اليونانى قد أثر في العقول بقوة الفكرة والجمال الخالص البعيد عن الصناعة كما يقول الأستاذ « جيب »، فذلك لأنه نشأ في بيئة منطقية فلسفية لا تلتأم الصناعة كثيرا — ولم يشأ العقل اليونانى أن يقف بعيدا عن الصناعة، بل أحب أن يأخذ منها بالقسط الملائم، وظهرت الدعوة في الأدب اليونانى

إلى ذلك، وأول بادرة في هذا السبيل رسالة تسمى «رسالة لنجيس» في الجلال» عرض لوصفها، وذكر بعض الغرض منها الأستاذ «لاسيل آسل كرمي» أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة لندن في كتابه قواعد النقد التي ترجمه الدكتور محمد عرض حيث يقول في صدرها «وهي كتاب كاد في بعض الأحيان أن يجاري كتاب الشعر لأرسطو في الأهمية — لكنه كتاب نقد صرف، ولا يستند إلى نظرية فلسفية في الأدب، وهو وإن كان من تأليف كاتب يوناني عاش في القرن الأول بعد الميلاد، فإن أهميته في تاريخ النقد حديثة، ترجع إلى عام ١٥٥٤ حينما طبع الكتاب للمرة الأولى.... وكلمة الجلال هنا لها معنى خاص خلاف المؤلف. ذلك أن المؤلف المجهول أراد في كتابه هذا أن يصف طبيعة الأسلوب، الأدبي، الذي من شأنه أن يسمو باللغة فوق المستوى العادي للألفاظ.... فإن من رايه أن الأمور التي ترفع الأسلوب وتجعله — مثل جلال الموضوع التخيل وقوة العاطفة البالغة أقصى حد، والمقدرة على حسن استخدام ضروب وأشكال من وسائل التعبير اللفظي — جديرة عند التحليل أن تكون قواعد للأسلوب الجيد» ويقول الأستاذ لاسيل في مدح الصناعة في هذا المقام وفي تأثير مذهب المؤلف اليوناني أولنجينوس في بعض الآداب الغربية «ومن الناس من يزعم أن ملكة الشعر هي مجرد هبة من الطبيعة. وليس من شك في أنها من هبات الطبيعة مثل الحظ الحسن... ولكن كما أن الحظ المواتي لا يمكن أن ينتفع به على الوجه الأكمل إلا بحسن التدبر والتعقل — كذلك من العقل أن يصغي الشاعر إلى صوت الصناعة إذ ترشده إلى كيفية استخدام ما حبه به الطبيعة. هذا الضرب من النقد الذي نستطيع أن نسميه النقد الأسلوبي وهذه النظرة الخاصة إلى الأسلوب قد ظهرت آثارهما في الأدب الإنجليزي في كتابات «بن جنسن» (Ben Jonson) كان جنسن هو المثل الأعلى الذي عاش في العصور التالية، ونشأت بعده مدرسة سميت مدرسة (بن) وانتصر لها بعد ذلك الشاعر دريدن «Dryden».

من هذه الكلمة يتبين عطف القوم من يونان قدماء، وغريبين ناشئين على الصناعة وتقديرهم بها في تراثهم الأدبي. فما بال المجددين وغيرهم يغضون من قيمة أدبنا لأجلها؟ وإذا كان هذا الحكم منظورا فيه إلى عصور التأخر والعنف فلماذا أقاموه على تلك العصور، ولم ينظروا إلى عصور القوة كما أسلفنا؟

ولقد تأتى الشعراء في الأدب العربى فى اختيار أساليب معينة والتزموها فى الشعر حتى عرفت بأنها أساليب شعرية، ومخالفتها ليست مقبولة فى الذوق الشعرى، وإن كانت مقبولة فى الذوق اللغوى — وتظرف الكتاب وبالغوا فى الترف الكلامى ما شاء لهم ذوقهم، وسمح به ظرفهم، حتى أحدثوا لهم عرفا كتابيا خاصا، فتخيروا ألفاظا كتابية مألوفة وصار العدول إلى غيرها جنوة للنف، وإن لم تذكره اللغة. ومثل هذا التأتق الفنى تراه قد ظهر فى الأدب العربى وكأما أوحى به اليهم الأدب العربى الذى سبق الأدب الغربى فى ذلك. ويحدثك الأستاذ لاسل آسل كرومبى عن هذه الظاهرة فيقول « هذا وأكبر ما يمتاز به الأسلوب الشعرى فى القرن الثامن عشر هو نخامة اللفظ... وإذا ضح القول بأن الشعر فن عقلى، أليس الواجب فى هذه الحالة أن يلزم طرازا واحدا من العبارة اللفظية يكون أكثر ملاءمة له من سواه؟ وبناء على هذا أخذت تسود الفكرة القائلة بأن ضروبا خاصة من التعبير هى بطبعها شعرية، ويمكن استخدامها فى جميع المواقف الشعرية، وما سواها لا يصح استخدامها. ولعل أكبر ما يمتاز به أدب القرن الثامن عشر أن استطاع إيجاد عبارة شعرية تفى — فيما يظهر — بجميع الأغراض الشعرية. ولكن الحقيقة أنها كانت وافية بأغراض محدودة، وبضروب خاصة من التعبير لا تعدوها. وقد كانت ثورات قام بها أفراد من آن لأن على ذلك المذهب فى القرن الثامن عشر نفسه. ولكن الذى حمل عليه حملة قضت على مزاعمه قضاء تاما هو الشاعر وردسورث (Word Sworth) حين كتب فى عام ١٨٠٠ مقدمة لكتاب قصص وأناشيد (Lyrical Ballads) أنكر

فيها أن هنالك عبارة شعرية بطبعها ، وقال إن اللغة الصحيحة للشعر هي اللغة التي يتكلمها الناس والذي يجعلها لغة شعرية هو كيفية استخدامها .. ولقد أفسح ورد سورث الطريق أمام أصحاب المذهب الحز (الرومانتزم) وجميع المذاهب والحركات الفكرية التي تبغى التحرر من قيود الأسلوب ، ولكن ليس معنى هذا أن الدروس التي أملاها القرن الثامن عشر ضاعت هباء .. بل لا تزال الآراء المألوفة في النقد يظهر فيها الأثر الهائل الذي تركه لنجينوس وبن جنسن ، نسوق هذه الأدلة كلها للمجددين ليعلموا أن الصناعة حظ شائع بين آداب العالم جميعا ، وإن اختلفت قوة وضعفا ، وأن الآداب الغربية مرت بها مؤثرات تشبه المؤثرات التي مرت بأدبنا العربي ، وتتم به كالصناعة ، والتزام عبارات شعرية وما الخلاف بين الرومانتيكيين والكلاسيكيين الذي نشأ في الأدب الغربي إلا صنو الخلاف بين المحافظين والمجددين في الأدب العربي الآن .

وبعد هذا فما فضل المجددين في دعوتهم ؟ إنا نراهم باتصالهم بالآداب الغربية قد تأثروا بما وجهه فيها النقاد إلى الصنعة ، وإلى زخرف الأسلوب والنسج على منوال الطريقة المثالية القديمة ، وتأثروا كذلك بما يتعرض له الشعر والنثر في هذه الآداب من الإلمام بموضوعات تمس الحياة العامة ، والتحليل لمواقف دقيقة مختلفة ، فأرادوا أن يحاكوا الغربيين في هذا كله ، فحملوا على أدبنا العربي بمثل ما حمل النقاد الغربيون على أدبهم ، فليس لهم في ذلك إلا فضل المحاكاة ، وغنى عن البيان أن فضل الابتكار والاختراع أجمل وأولى من فضل المحاكاة ، فليدعوا الشرقيين المحض وشأنهم في هذا السبيل ، فإن فاقده الشيء لا يعطيه ، وليطالعوا على الناس بمذهبهم فإن عصر القول قد مضى بملولا ، ومن علم فعليه أن ينفع الناس بثمار علمه وفضله .

أنا — جزاك الله خيرا يا صديقي العصفور على ما قدمت لأخيك من حسنات لم يوفق إليها من قبل ، ولقد دفعت عن أدبنا العربي مظالم أوشكت

أن تنزل من الناس منزلة الحقائق، وكشفت عن نواح كثيرة كنا نظن أنها مرمية،
عقول المجددين، ووليدة قرائنهم فإذا هم فيها محاكون.
ولاحت في الجو ثكنة من الطير تسعى إلى عشاشها، وقد أدركها الليل،
فلما رآها حن إليها حينئذ شديدا تبين أثره في عينيه، واضطرب اضطراباً قوية،
عاد بها عصفورا يخترق أجواز الفضاء، ثم حلق في الجو، وخفق بجناحيه
خفقتين إيماء لي بالتحية والوداع، ولحق بالثكنة واندمج فيها.

عبد اللطيف المغربي